بتاريخ 21 رجب 1446
المواسعة و المضايقة

الجلسة 60

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ
الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينْ وَصَلَى الله عَلَىٰ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

إزالة شبهة الوسوسة عن العصمة المطلقة

لقد استَحضرنا ـ حتّى الآن ـ شتّى الحُجَج و البَراهين تجاه «العصمة المطلقة» التي تُنزّه المعصوم و تُبرّئه حتّى عن الوساوِس، حيث قد اعتَصمنا بمقدّمات الحِكمة المتوفّرة في الفِقرات التّالية: «آمنوا و لم يَلبسوا إيمانَهم بظلم» و «لهم الأمن و هم مهتدون» و «أولئک الذين هدى الله فبهداهم اقتَدِه» و «اجتبيناهم و هديناهم» و «إلا عبادَک منهم المخلَصين» و «إنّما يريد الله ليُذهِب عنكم الرّجس أهلَ البيت»[1] فإنّها آيات محكَمات حتماً، فإنّه تعالى يُعدّ في مقام تِبيان التّوسعة و تبيين الأمن المطلق لهم عن السّهو و الخَطأ و الوسوسة في النّفس و النّسيان و... حتّى الدّنيويّة أيضاً، فبالتّالي قد بَرهَنت على «العصمة المطلقة» بحيث قد افتَقد الشّيطان السّلطنةَ الوسواسيّة و الإغوائيّة و السّهويّة و أشباهَها تجاهَ المعصوم تماماً.

و حيث قد أنهَينا الآية 52 المتشابِهة من سورة الحجّ و حلَلنا عُقَدها بأسرِها و فسَّرنا كافّة شبهاتها الموهومة و أبعادها الغامضة، فبالتّالي سنَتدارَس الآن، الآيةَ المتشابِهة التّالية: «وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.»[2]

فرغمَ أنّ الخطاب قد انصبَّ على رسول الله ـ مُشعِراً بأنّ الشّيطان يُمكنه النّفوذ إلى قلب المعصوم و إلقاءُ الوسوسة على أفكاره ـ و لكنّا حينما مَحَّصنا مغزى «النّزغ» فقد استَنتَجنا معنى يُضادّ ما اشتَهَر في الألسُن ـ أي الوسوسة ـ فإنّ:

Ø ابن فارس (395ق) قد تَرجَم هذه الكلمة قائلاً: «النّون و الذّاء و الغين، كلمةٌ تدلّ على إفسادٍ بين اثنَين، و نزَغَ بين القوم: أفسَد ذاتَ بينِهم.».[3]

Ø و لسان العرب (711ق) قد وضّحها قائلاً: «أن تَنزِغَ بين قوم فتَحمِلَ بعضَهم على بعض بفسادٍ بينهم. و النّزغ: الكلام الذي يُغري بين النّاس. نزغه: حركَّه أدنَى حركة، و نزَغ الشّيطان بينهم يَنزِغ و يَنزَغ نزغاً أي أفسَد و أغرَى».[4]

فنظراً لذلک، قد أخطَأت بعضُ التّفاسير الفارسيّة حينما فسَّرت «النّزغ» بوسوسة الشّيطان، بينما هذا المعنى يُعدّ أهوَن محتَملات هذه الكلمة ـ كما سنَبسُط ذلک ـ و لهذا قد أثاروا استِغرابَنا حينما لم يَنتَبِهوا إلى هذه المصادر اللّغويّة.

قاطعُ البُرهان من قِبَل صاحب الميزان

و نِعم ما فسَّر الآيةَ السّيّد الطّباطبائيّ قائلاً:

«قوله تعالى: «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»:

1. قال الرّاغب في المفردات،: «النّزغ دخول في أمر لأجل إفساده، قال: مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي.» انتهى.

2. و قيل: «هو الإزعاج (و الإيذاء) و الإغراء (و الإضلال) و أكثر ما يكون حالَ الغضب».

3. و قيل: هو من الشّيطان أدنَى الوسوسة.

و (بات واضحاً أنّ) المعاني متقارِبة، و أقربها من الآية هو الأوسط لمناسبته الآية السّابقة الآمرة بالإعراض عن الجاهلين، فإن مماسَّتَهم الإنسانَ (كالمعصوم) بالجهالة نوعُ مداخَلة من الشّيطان لإثارة الغضب، و سوقِه إلى جهالة مثله، فيَرجع معنى الآية (ناتِجاً:) إلى أنّه لو نَزغ الشّيطان بأعمالهم المبنيّة على الجهالة و إساءتهم إليك، ليسوقَكَ بذلك إلى الغضب و الانتقام، فاستعِذ بالله إنّه سميع عليم، و الآية مع ذلك عامّةٌ خوطب بها النّبيّ (ص) و (لكن قد) قُصِد بها أمّتُه لعصمته (فأصبح الخطاب من باب «أيّاك أعني و اسمعي يا جارَ» حسب الرّوايات)».[5]

فالحصيلة من هذه الآية النَّبيلة:

· أوّلاً: أساساً ليس معنى «النّزغ» هي الوسوسة، بل يُعدّ ذلك «قيلاً» مُتزعزِعاً و ليس أكثر، بل جذرُ معناه هو «إيجاد المفارَقة و الإفساد بين اثنين» فبالتّالي لم تدلّ الآية على نفوذ الوسوسة في «نفس النّبيّ».

· ثانياً: رغمَ تعلّق الخطاب لشخص النّبيّ ـ في الظّاهر البدويّ ـ إلا أنّ المستَهدَف الأساسيّ هي أمَّته المبتَلِية بأنواع النّزَغات و المُنزَلَقات، و مستَمسَكنا لهذه التّفسيرة هي الرّواية التّالية: «نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَ اسْمَعِي يَا جَارَ»[6] و ربما نعارَض بأنّ الرّواية لا تُلائم سياق الآية السّابقة ـ خذ العفو... ـ حيث قد خاطَبت النّبيّ نفسَه لا أمَّتَه، و لكن نُجيب بأنّ قرينيّة السّياق مُجدية في الجملة لا بالجملة فلا تقدَح الظّهور في الآية المبحوثة.[7]

· ثالثاً: لو سلَّمنا معنى الوسوسة جدلاً، و لكن حينما نُركِّز على تعبير الآية القائلة: «يَنزَغنَّكَ من الشّيطان» فنَراها لم تُعبّر «يَنزغَنَّكَ الشّيطان» حيث قد لَفَتَت أنظارَنا بأنّ الشّيطان لا يُوسوِس بنفسه مباشرةً بل قد نَشأ و ابتَدأ النّزغ من جانب الشّيطان، ممّا يَعني أنّه سيُولِّد الموانع للنّبيّ و يُفسِد أمنياتَه و أهدافَه بأن يُلقي ألفاظاً إلحاديّة و شُبُهاتاً مُغرية على أفواه الكفّار و المنافقين و الجاهلين ـ الذين في قلوبهم زَيغ و مرض ـ فبالتّالي هم يُعدّون وسائطَ الشّيطان و أجنِدتَه لعمليّة النّزغ و الغيّ و الإزعاج[8] و لكنّ الله كان يَنسخ هذه النّزَغات عن ساحة النّبيّ ببركة «الاستعاذة» وفقاً لتصريح الآية.[9]

فالنّاتج المحصود هو أنّ نفس المعصوم ناءٍ عن «الوسوسة في أمر مَشوم» فبالتّالي سيستحيل في حقّه وقوع السّهو و أيُّ عنصر مَذموم.

---

[1] و نُفيض آية أخرى عليها أيضاً: «إنّه ليس له سلطانٌ على الّذين آمنوا ... إنّما سلطانه على الّذين يَتولَّونه» (سورة النّحل الآية 99-100.)

[2] سورة الأعراف، الآية 200.

[3] معجم مقاييس اللّغة 5/ 416. و الآية التّالية أيضاً تَدعم هذه التّرجمة حيث قال تعالى: «إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي» (سورة يوسف الآية 100) و قال تعالى أيضاً: إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (سورة الإسراء الآية التّالية: 53). و لهذا إنّ عمليّة «النّزغ» لا تَتسرَّب في نفس الإنسان بل تُعدّ عمليّة عِدائيّة خارجيّة ما بين الأفراد كما تُعاين هاتَين الآيتَين.

[4] لسان العرب ج8 ص454.

[5] الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص: 381

[6] الكافي (ط ـ دار الحديث)، ج4، ص: 665

[7] و نُفيض نقاطاً أخرى استِكمالاً لمقالة الأستاذ المُبجَّل في هذه الإجابة، أوّلاً: إنّ قرينة السّياق تتغيّر مع كلّ ريح و لهذا تُعدّ أضعفَ القرائن إذ تَنعطِف إلى منعطَفات و أسباب كثيرة كالظّهور التّبادريّ أو الانصرافيّ أو سائر الآيات الأخَر و... فلا تُعدّ حِصناً حصيناً إذن. و ثانياً إنّ الآية التي سبَقَتها أيضاً تعدّ تعليماً للأمّة ـ لا للنّبيّ فحسب ـ فخاطَبت النّبيّ كي يُعلِّمهم كيف يأخذون العَفو السّلاسة و الميسور و يأمرون بالمعروف و الحَسنات و يُعرِضون عن الجَهَلة، فلم يَنحصِر الخطاب بالنّبيّ الأكرم حتّى يُدعّى أنّه خطاب إليه فحسب بل هي أيضاً من باب إياک أعني و اسمعي يا جارَ.

[8] و هذه المقالة تَنسجِم تماماً مع الآيات التّالية: «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً» (سورة الأنعام الآية 112). كذا «وَ إِنَّ الشَّيٰاطِينَ لَيُوحُونَ إِلىٰ أَوْلِيٰائِهِمْ لِيُجٰادِلُوكُمْ» (سورة الأنعام الآية 121). و كذا «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» (سورة الفرقان الآية 31). و كذا «اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰانُ فَأَنْسٰاهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰانِ أَلاٰ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰانِ هُمُ الْخٰاسِرُونَ» (سورة المجادلة الآية 19). و كذا «إِنَّ الشَّيْطٰانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمٰا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ السَّعِيرِ» (سورة فاطر الآية 6).

[9] حيث قال تعالى: «إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جٰاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطٰانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي»؛ الآية 100 سورة يوسف.